من رجال الحديث فى عصر الحروب الصليبية

ابن عساكر

للأستاذ أحمد أحمد بدوى

أبو القاسم على ابن الحسن بن هبه الله ، ولا أعلم كيف جاءته هذه الكنية، فإن مؤرخيه لا يعرفون أحدا من أجداده يسمى عساكر ، ولكنه اشتهر بذلك فى التاريخ .

ولد بدمشق فى أوائل عصر الحروب الصليبية ، أول المحرم سنة تسع وتسعين وأربعمائة، (سبتمبر سنة ١١٠٥)، وتلقى ثقافته الأولى فى الفقه والحديث بدمشق ، فأخذ فيها عن جماعة ، منهم والده ، وأخوه ضياء الدين ، ثم رحل إلى العراق سنة عشرين وخمسمائة ، وأقام بها خمس سنين ، يتلقى العلم بالمدرسة النظامية ، فأكمل دراسته فى الفقه ، وعلق مسائل الخلاف ، كما درس النحو والعربية هناك ، ولم يكتف فى الحديث بما وصل اليه بل رحل فى طلبه إلى أمهات مدن العراق ، وخراسان ، والجزيرة ، والشام ، والحجاز ، فمضى فى رحلته إلى الشرق ، حتى وصل إلى مرو الشهجان ، كما سمع بالكوفة ومكة ، والمدينة ، وأكثر من الأخذ عن العلماء حتى صارت عدة شيوخه ألفا وثلاثمائة شيخ ، ومن النساء بضع وثمانون امرأة ، وكان موضع إعجاب أساتذته وتقديرهم. قال أحد أساتذته عنه : ما كنا نسمى الشيخ أبا القاسم ببغداد إلا شعلة من نار من توقده ، وذكائه ، وحسن إدراكه ، وقال عنه البغداديون : قدم علينا من دمشق ثلاثة ما رأينا مثلهم : الشيخ يوسف الدمشقى ، والصائن أبو الحسن هبة الله بن الحسن ، وأخوه أبو القاسم ، وكذلك قدره الخراسانيون .

وعاد ابن عساكر إلى الشام ، وقد أصبح من كبار فقهاء الشافعية متفردا فى الحديث وعلومه ، متقنا لما حفظه من الأحاديث متقاوسنداً ، متثبتا فيما يحفظ ، ومحتاطا فيما يأخذ ، وكان هو وابن الوزير قد سمعا كتبا كثيرة فى الحديث . حكى ولده الحافظ أبو محمد القاسم ، قال : كان أبى قد سمع كتبا كثيرة ، لم يحصل منها نسخا اعتمادا منه على نسخ رفيقه الحافظ أبى على بن الوزير ، فسمعه ليلة من الليالى ، وهو يتحدث مع صاحب له فى ضوء القمر فى الجامع ، فقال : رحلت ، وما كأنى رحلت ، وحصلت وما كأنى حصلت ، كنت أحسب أن رفيق ابن الوزير يقدم بالكتب التى سمعتها ، مثل صحيح البخارى ومسلم، وكتب البيهقى وعوالى الأجزاء فانفقت سكناه بمرو ، وإقامته بها ، وكنت أؤمل وصول رفيق آخر يقال له يوسف الجبائى ، ووصوله رفيقنا أبى الحسن الواوى ، فانه كان يقول لى : ربما رحلت إلى دمشق ، وتوجهت منها إلى بلدى بالأندلس ، وما أرى أحدا منهم جاء دمشق ، فلا بد من الرحلة ثانيا وتحصيل الكتب الكبار ، والمهمات من الأجزاء العوالى » فلم يمض إلا أيام يسيرة ، حتى جاء إنسان من أصحابه اليه ودق عليه الباب وقال هذا أبو الحسن الواوى قد جاء فنزل أبى اليه وتلقاه ، وأنزله فى منزله ، وقدم علينا بأربعة أسفاط مملوءة من الكتب المسموعات ففرح أبى بذلك فرحا شديدا وشكر الله سبحانه على ما يسره له من وصول مسموعاته اليه من غير تعب و كفاه مئونة السفر .وأقبل على تلك الكتب فنسخ واستنسخ حتى أتى على مقصوده منها . وكان كلما حصل على جزء منها ، كأنه حصل على ملك الدنيا .

وقضى أبو القاسم بعد عودته إلى دمشق ، زهاء أربعين عاما فى الجمع والتصنيف والمطالعة ، والتسميع حتى فى نزهه وخلواته ، ويحاسب نفسه على كل ساعة تمضى ، يدون عمل حتى جمع فى الحديث مالم يجمعه غيره قال شيخه الخطيب أبو الفضل الطوسى : « ما نعرف من يستحق لقب الحافظ اليوم سواه » فانتهت اليه الرياسة فى الحفظ والإتقان والمعرفة التامة بعلوم الحديث والتفقه فيه ، وحسن التصنيف والتجويد ، قال الحافظ عبد القادر الرهاوى « مارأيت أحفظ من ابن عساكر ، رأيت السلفى ، وأبا العلاء

الهمدانى وأبا موسى المدينى : ما رأيت فيهم مثل ابن عساكر » ، وقال الحافظ أبو العلاء الهمدانى : « أنا أعلم أنه لا يساجل الحافظ أبا القاسم فى شأنه أحد » ؛ وقال المنذرى : « سألت شيخنا الحافظ أبا الحسن بن المفضل ، عن أربعة تعاصروا ، أيهم أحفظ ؟ قال من ؟ قلت : الحافظ ابن ناصر ، وابن عساكر ؟ فقال ابن عساكر قلت الحافظ أبو موسى المدينى وابن عساكر ؟ فقال : ابن عساكر فقلت : الحافظ أبو طاهر السلفى ، وابن عساكر ؟ فقال السلفى شيخنا » ، قال الذهبى : يعنى أنه ما أحب أن يصرح بتفضيل ابن عساكر ، تأدبا مع شيخه ، ثم أبو موسى أحفظ من السلفى ، مع أن السلفى من نجوم الحديث وعلمائه ؛ وانتهى الأمر بأن قال بعض الحفاظ الأثبات : « ما أرى ابن عساكر رأى مثل نفسه » .

وقد عرف له سلطانا عصره مكانته ؛ أما نور الدين فقد بنى له دار الحديث بدمشق ، ووكل إليه أمرها ، وكان ابن عساكر يسمع نور الدين فى مجالسه حديث رسول الله ، ويضمر له فى قلبه الحب والإعجاب ، قال عنه فى مقدمة كتاب « تاريخ دمشق » « ورق خبر جمعى له إلى حضرة الملك المقدام ، الكامل العادل ، الزاهد المجاهد ، المرابط المهام أبى القاسم محمود بن زنكى بن آق سنقر ، ناصر الإسلام ، أدام الله ظل دولته على كافة الأنام ، وأبقاه مسلما من الأسواء ، منصور الأعلام ، منتقما من عداة المسلمين الكفرة الطغام ، معظما لحملة الدين باظهار الإكرام لهم والاحترام ، منعما عليهم بادرار الاحسان إليهم والإنعام ، عافيا عن ذنوب ذوى الإساءات والاجرام بانيا للمساجد والمدارس والأسوار ومكاتب الأيتام ، راضيا بأخذ الحلال ورافضا لاكتساب الحطام ، آمرا بالمعروف زاجرا عن ارتكاب الحرام ، ناصرا للعفو وقاهرا للظالم السفوف الانتقام ، قامعا لأرباب البدع بالإبعاد لهم والارغام ، خالعا لقلوب الكفرة بالجرأة عليهم والاقدام »

وأما صلاح الدين فكان يقدر ابن عساكر عظيم التقدير ، وكان الحافظ يحضر مجالس السلطان ، ، ثم انصرف عنها حينا ، لما كان يمتاز به صلاح الدين من ديمقراطية سوغت وجود اللغط فى مجالسه. فلما تكرر من صلاح الدين الطلب له حضر ، وعاتبه صلاح الدين فقال له الحافظ : « نزهت نفسى عن مجلسك فانى رأيته كبعض مجالس السوقة ، لايستمع فيه إلى قائل ، ولا يرد جواب متكلم ، وقد كنا بالأمس نحضر مجلس نور الدين ، فكنا كما قيل : كأنما على رؤوسنا الطير ، تعلونا الهيبة والوقار ، فاذا تكلم أنصتنا ، وإذا تكلمنا استمع انا . فتقدم صلاح الدين إلى أصحابه أنه لايكون منهم ماجرت به عادتهم إذا حضر الحافظ ، فلما مات حضر السلطان صلاح الدين الصلاة عليه ومشى فى جنازته .

وعاش ابن عساكر منصرفا إلى فنه ، لايتطلع إلى أسباب الدنيا ، معرضا عن المناصب ، بعد عرضها عليه ليس له منها سوى أستاذيته لدار الحديث، كثير الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، موجها همه إلى إذاعة حديث رسول الله .

وكان يدين بمذهب الأشعرى ، وينافح عنه ؛ وألف فى ذلك كتابا سماه : تبيين كذب المفترى ، فيما نسب إلى أبى الحسن الأشعرى ، رد به على الحسن بن على الأهوازى الدمشقى ، المتوفى سنة ٤٤٦ ، وكان يكره مذهب الأشعرى ويضعفه .

ولم يزل ابن عساكر خادما للسنة ، قائما بأنواع العبادة : من صلاة وصيام واعتكاف ، وصدقة ونشر علم ، وتشييع جنازة وصلة رحم ، إلى أن مات ليلة الاثنين الحادى والعشرين من رجب سنة إحدى وسبعين وخمسمائة . وقد رثاه المعجبون به بقصائد عدة ، وترك أبنا هو القاسم بهاء الدين من رجال الحديث وحفظته .

أما آثاره العلمية فعدد ضخم ؛ يدلنا على ما امتاز به وقت هذا الرجل، من امتلاء بالتأليف والتصنيف ؛ ورويت عنه مصنفاته وهو حى؛ وذاع بها اسمه وانتشر فى أرجاء العالم الإسلامى ويمكن تقسيمها ثلاثة أقسام بحسب ، موضوعها فأغلبها مجموعات حديث ثم كتب فى التاريخ . فكتاب فى علم الكلام . وآخر فى الأدب .

وتتألف كتبه فى الحديث من مجموعات اختارها أو رواها : فله أحاديث رواها مثلا عن جماعة من كفر سوسية . وأخرى عن جماعة من أهل حرستا . كما أنه وضع كتابا جمع فيه بين سنن أبى داوود ، وجامع الترمذى والنسائى . ودعاه الإشراف على معرفة الأطراف . وكتابا جمع فيه ما اتفق عليه شيوخ الأئمة الثقات .

وله كتب تتناول أحاديث ذات غرض واحد. مثل كتابه المنتقى فى فضائل المسجد الأقصى . الذى اشتمل على ما جاء من الحديث فى بيت المقدس . وكتابه فضل عاشوراء . وفضائل مقام ابراهيم، وتبيين

الامتنان بالأمر بالاختتان .

أوذات صفة خاصة كالأحاديث الخماسية الاسناد ، أوالسداسية أو السباعية . أو السداسات وقد جمعها فى عشرة أجزاء .

وله أمال فى الحديث ضخمة .

كما جمع عدة أنواع من الأربعينات ، فاقتدى بالسلفى فيما جمعه من أربعين حديثا سمعها فى أربعين بلدا ، نقلها عن أربعين شيخا [illegible] على ما أتى به من الغرابة بأن حملها عن أربعين من الصحابة كما جمع أربعين حديثا فى الجهاد ، دفعه إلى جمعها بلا ريب هـذا الصراع العنيف بين المسلمين والصليبيين فى عهده ، وجمع أربعين حديثا من الطوال ، وأربعين فى المساواة ، وروى فى أجزاء معينة الأحاديث التى رواها صحابى بعينه .

وله كتاب كشف الغطا فى فضل الموطا .

أما كتبه التاريخية فأشهرها تاريخ مدينة دمشق ، فى ثمانين مجلدا ، وهو من أعظم المفاخر فى التاريخ ، وضمه على نسق تاريخ بغداد لأبى بكر الخطيب ، وأورد فيه تراجم الأعيان ، والرواة ، والمحدثين والحفاظ ، وسائر أهل السياسة والعلم من صدر الإسلام إلى أيامه ممن سكن دمشق ، أو نزلها ، قال ابن عساكر فى مقدمة كتابه : وهو كتاب يشتمل على ذكر من حلها من أماثل البرية ، أو اجتاز بها أو بأعمالها من ذوى الفضل والمزية ، من أسامتها وعدادها ، وخلفائها وولاتها ، وفقهائها وقضاتها ، وعلمائها ورواتها ، وقرائها ونحاتها ، وشعرائها ورواتها ، من أمنائها وأبنائها ، وضعفائها وثقاتها ، وذكر مالهم من ثناء ومدح ، وإثبات ما فيهم من هجاء وقدح ، وإيراد ما ذكروه من تعديل وجرح ، وحكاية ما نقل عنهم من جد ومزح ، وبعض ما وقع إلى من رواياتهم ، وتعريف ما عرفت من مواليدهم ووفاتهم ، وبدأت بذكر من اسمه منهم أحمد ، لأن الابتداء بمن وافق اسمه إسم المصطفى . ثم ذكرتهم بعد ذلك على ترتيب الحروف ، مع اعتبار الحرف الثانى والثالث تسهيلا للوقوف ، وكذلك أيضا اعتبرت الحروف فى أسماء آبائهم وأجدادهم ، ولم أرتبهم على طبقات أزمانهم ، أو كثرة أعدادهم ، وعلى قدر علومهم فى الدرجات والرتب ، ولا لشرفهم فى الأفعال والنسب ، وزدت فيه من عرف بكنيته ، ولم أقف على حقيقة تسميته ... وأتبعتهم بذكر النسوة والإماء الشواعر ، المشهورات ، وقدمت قبل جميع ذلك جملة من الأخبار فى شرف الشام وفضله ...

وقد أدهش العلماء به لكبره واتساعه ، وقال ابن خلكان قال له شيخنا الحافظ العلامة ذكى الدين أبو محمد عبد العظيم المنذرى ، حافظ مصر ، أدام الله به النفع ، وقد جرى ذكر هذا التاريخ ، وأخرج له منه مجلداً ، وطال الحديث فى أمره واستعظامه ، « ما أظن هذا الرجل إلا عزم على وضع هذا التاريخ من يوم عقل ، وشرع فى الجمع من ذلك الوقت ، وإلا فالعمر يقصر عن أن يجمع فيه الانسان مثل هذا الكتاب بعد الاشتغال » . ولقد قال الحق ومن وقف عليه عرف حقيقة هذا القول ، ومتى يتسع للانسان الوقت حتى يضع مثله ، وهذا الذى ظهر هو الذى اختاره ، وما صح له هذا إلا بعد مسودات ما يكاد ينضبط حصرها .

وعنى العلماء بهذا الكتاب ، فمنهم من جعل له ذيولا ، أهمها ذيل القاسم ولد المصنف ، وذيل عمر بن الحاجب ، ومنهم من اختصره : كابن شامة ، وابن منظور صاحب لسان العرب ، وارجع إذا شئت ، إلى كتاب كشف الظنون (ج ١ ص ٢٩٤) لترى ما لهذا الكتاب من ذيول ومختصرات .

ولابن عساكر غيره ، كتاب المعجم ، وهو خلاصة لمشهورى الرجال ، وبخاصة الشافعية ، ولهذا الكتاب ذيل لمحمد ابن عبد الواحد المقدسى المتوفى سنة ٦٤٣ ، كما وضع معجما فى اثنى عشر جزءا ترجم فيه لأساتذته الذين سمع منهم أو أجازوا له ، ومعجما خاصا لمن سمع منه من النساء ، وألف معجما للصحابة ، وكتابا لمن نزل المزة وحدث بها ، وآخر فيمن وافقت كنيته كنية زوجته ، وتحدث فى معجم عن مناقب الشبان ، وفى آخر عن أسماء القرى والأمصار التى سمع بها .

وأملى سبعة مجالس فى فضائل الصديق رضى الله عنه ، ثم أكملها بأربعة أخرى ، ثم أملى فى كل واحد من الخلفاء أحد عشر مجلسا .

ووضع ابن عساكر فى علم الكلام كتابا سماه : كذب المفترى فيما نسب إلى أبى الحسن الأشعرى ، وهو من الكتب المهمة فى موضوعه ، حتى قالوا : إن كل سنى لا يكون عنده ذلك الكتاب ، فليس من نفسه على بصيرة ، وقد بينا سبب تأليفه .

أما كتابه في الأدب فيسمى بالأطراف الأدبية ، وهو في أربعة مجلدات ، وأمله ، كما يدل عليه اسمه ، مختارات جمعها ، كما كان يصنع في كتب الحديث .

وكان ابن عساكر يقول من الشعر ما لا يبلغ درجة الجودة، فمما نسب إليه قوله:

أيانفس ؛ ويحك جاء المشيب ... فماذا التصابي ، وماذا الغزل
تولى شبابي كأن لم يكن ... وجاء مشيبي كأن لم يزل
كأني بنفسي على غرة ... وخطب المنون بها قد نزل
فيالَيت شعري ممن أكون ... وماقدر الله لي في الازل ؟

ومن قوله يمجد الحديث ، ويحث على أخذه شفاها لا نقلا عن الكتب .

ألا إن الحديث أجل علم ... وأشرفه الأحاديث العوالي
وأنفع كل نوع منه عندي ... وأحسنه الفوائد والأمالي
وإنك ان ترى للعلم شيئاً ... يحققه كافواه الرجال
فكن يا صاح ذا حرص عليه ... وخذه عن الرجال بلا ملال
ولا تأخذه من صحف فترى ... من التصحيف بالداء العضال

وتجد نماذج كثيرة من شعره في كتاب خريدة القصر ؛ وكتاب معجم الأدباء لياقوت .

وكان بينه وبين الحافظ أبي سعد عبد الكريم بن السمعاني رفيقه في الرحلة مودة ؛ وقد روى عنه السمعاني كثيرا ؛ كما روى ابن عساكر عن رفيقه ؛ وكتب إليه أبو سعد كتابا ضخما سماه (فرط الغرام إلى ساكني الشام) ؛ كما كتب هو إلى ابن السمعاني رسالة يعاتبه فيها على تباطئه في إنفاذ حاجة له :

ما كنت أحسب حاجتي مهما نأت داري مضاعه
أنسيت ندي مودتي بيني وبينك وارتضاعه
ولقد عهدتك في الوفا ... ء أخا عميم لا قضاعه

وتتلمذ لابن عساكر جماعة كبيرة من الحفاظ كان بعضهم أسن منه . ومن أشهر تلاميذه أبو شامة المقدسي .

وقد تناول مؤرخو ابن عساكر سيرته مقرونة بأسمى آيات الإجلال والإكبار . فهذا السبكي يقول عنه في طبقاته : هو الشيخ الإمام ناصر السنة وخادمها ، وقامع جند الشيطان بمساكر اجتهاده وهازمها . إمام أهل الحديث في زمانه . وختام الجهابذة الحفاظ ولا ينكر أحد منه مكين مكانه . محط رحال الطالبين ، ومؤمل ذوي الهمم من الراغبين . الواحد الذي أجمعت الأمة عليه ، والواصل إلى مالا تطمح الآمال إليه . والبحر الذي لا ساحل له ، والحبر الذي حمل أعباء السنة كاهله . قطع الليل والنهار دائبين في دأبه . وجمع نفسه على أشتات العلوم ، لا يتخذ غير العلم والعمل صاحبين وهما منتهى أربه . لا تغيب عنه شاردة ، وضبطه استوت لديه الطريفة والتالدة ، وإتقان ساوى به من سبقه إن لم يكن فاقه ، وسمة علم أثرى بها وترك الناس كلهم بين يديه ذوي فاقه »

وقال فيه النووي : « هو حافظ الشام بل حافظ الدنيا . الامام الثقة الثبت »

وقال ابن النجار : « هو إمام المحدثين في وقته ، ومن انتهت اليه الرياسة وبه ختم هذا الشأن » :

كان ابن عساكر هذا أنبه أبناء أسرته الذين عرف التاريخ منهم أخاه الفقيه المحدث هبة الله وولده القاسم وولد أخيه محمدوهما الحسن وكان محدثا وعبد الرحمن وكان مدرسا فقيها محدثا

أحمد أحمد بدوي

وزارة المعارف العمومية

مراقبة التوريدات

سبق أن أعلنت الوزارة عن الحاجة الى كتب دراسية لاستعمالها بالمرحلة المتوسطة (السنتين الأولى والثانية الثانويتين) في المواد الآتية : ـ

العلوم العامة ، والحساب ، والجبر ، والهندسة والتربية الوطنية ، والتاريخ ، والجغرافيا

وحددت لتقديم الكتب ٣١ يناير سنة ١٩٥٠ م .

ولرغبة الوزارة في أعطاء حضرات المؤلفين فرصة كافية لوضع كتب صالحة قررت امتداد ميعاد تقديم الكتب المذكورة إلى آخر مارس سنة ١٩٥٠ م على أن يكون هذا التاريخ آخر ميعاد لتقديمها . ٣٢٧٢